الراغب الأصفهاني بين البعد السياقي والمعني اللغوي

الدكتور محمود حسين الزهيري

ملخص البحث

يعد الراغب الأصفهاني من أقدم من صنف في مفردات القرآن الكريم، وكان مصنفه "معجم مفردات ألفاظ القرآن" كتابًا ذا قيمة علمية يظنه الدارس للمفردات فحسب، وعند تصفحه يظهر أنه يغوص في أعماق اللفظ لغة وسياقًا، فبرزت مشكلة البحث لبيان واقع هذا المصنف الذي أضرب صفحًا عن المفردات مجردة إلى البيان والتفسير والمنطق، وظهرت صعوبة أخرى في تناول اللفظ من جراء تتبع المصنف له في سياق الآيات، وكان الهدف من البحث هو الوقوف على طريقة المصنف فيه والكشف عن مدى مراوحته ما بين التفسير واللغة، فجاء على قسمين: البعد اللغوي والبعد السياقي فتناول في الأولى قضايا اللغة والإعراب والتصريف والأدوات والأسماء المتضايفة والمتضادة والإستعارة والتشبيه حيث وردت.

أما الثاني: فتناول اللفظ في سياقه وإلى أين صار معناه ودلالته ونفذ من خلال ذلك إلى المنطق والفلسفة وظهر في هذا الجانب أن المصنف كان أكثر ارتياحًا وانفساحًا من الأول وأكثر توسعًا وشرحًا، بل ربما وجد نفسه فيه لما له من آفاق كشأن المفسرين لذا يمكن أن يعد تفسيرًا مختصرًا لألفاظ القرآن وليس مجرد معجم لغوي .

Abstract

Al-Ragheb Al-Asfahani is considered one of the first who categorized the lexemes of the Holy Qur’an. His masterpiece "Lexicon of lexemes of the Qur’an" was a book of academic value that learners think it is only on lexemes. And so when browsing, it appears that it explores the depths of the term linguistically and contextually. Thus, the research problem appeared to investigate the reality of this book, which not only tackled terms alone, but also with rhetoric, interpretation, and logic. Another difficulty appeared in dealing with the term as a result of tracing the book to it in the context of the verses. The objective of the research is to explore the book methodology and find out the extent of its style between interpretation and language. Therefore, it came in two sections: the linguistic dimension, where linguistics, parsing, functions, transitional devices, synonyms and antonyms, metaphor and simile were addressed. The second section deals with the contextual dimension, which discusses speech and its context and what is beyond meaning and connotation, looking deeper into logic and philosophy. In this dimension, the study showed that the book was more contented and affording and more extensive and explanatory than the first. Further, the study revealed that Al-Asfahani gave his best in this book that considered be counted A brief interpretation of the words in the Qur’an, not just a lexicon.

الراغب الأصفهاني بين البعد السياقي والمعني اللغوي

المقدمة :

يتخذ الراغب الأصفهاني[1] من السياق منفذًا لترجيح المعنى والبناء عليه، حسبما ورد في القرآن الكريم، بينما يعتمد في الوقت نفسه المعنى اللغوي وجذر اللفظة، فأنشأ مصنفه حسب الترتيب الهجائي، ثم ينطلق إلى اللفظة أينما وقعت لبيان واقعها الكلامي.

"فالكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها، المستغنية عن غيرها وهي التي يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تركيبها[2]" ويتفاوت الكلام في السهولة والصعوبة من حيث المعنى فالوقوف على المعنى هو المفضي إلى الفهم الصحيح، والتصويب الذهني للتصور الكلامي الشامل، فيلحظ أن الراغب عوّل عليه ابتداء ثم انطلق إلى مجالات أكثر فسحة وبيانًا في قضايا السياق.

والسياق من القضايا التي وقف عندها القدماء سواء بمعناه اللغوي أم ترجيح الدلالة وبيانها فأصحاب المعاجم أجمعوا على أن معناها يدور حول التتابع والتلاحق في الشيء أو الكلام وغيره من صداق ومهر، وما استاقه العدو من إبل وشياه وغيرها[3]، ولم يقف القدماء عند المعنى اللغوي القاموسي فحسب بل نظروا إليه مرجحًا للمعنى فسيبويه حكم على بعض الجمل صحة وخطأ من خلال السياق وموقف المتلقي والمخاطب[4].

ويبرز السياق في الدراسات الحديث مرتبطًا باللغة والمعنى، وعُدَّ من مقومات فهم الدراسة النقدية[5] وتجلية المعنى وإظهاره على أوضح صورة، ونظرت الدراسات إلى ما يكتنف النص من ملابسات خارجية وظروف صاحبت إنتاجه[6] وإبداعه، وركزت على السياق اللغوي وما يتبعه من معنى يتبلور من جراء تتابع الكلام وسوقه وظروفه كي لا يقع الدارس في الخطأ أو أن يحمل المعنى على غير وجهه ومراده.

---

1 هو أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضّل الأصبهاني، الملقب بالراغب صاحب التصانيف وكان من أذكياء المتكلمين، انظر الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(4)، 1406هـ 1986م ، 18/ 120 .

2 ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط(4)، 1990، 1/ 33 .

3 انظر معنى السياق، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم الأنصاري، ت، 711هـ ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، باب القاف فصل السين، مادة سوق، وابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، ت،395 هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط (1)، 1991م، مادة سوق، 3/ 117 ، والزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ت، 538هـ، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة، 1989م، ص314 ، والفيروز أبادي، مجدالدين بن يعقوب، ت، 817هـ، القاموس المحيط، تحقيق، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(4)، 1994م، مادة سوق، باب القاف فصل السين.

4 الموسى، نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ص92.

5 انظر، جولان لانيز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، ط(1)، 1987م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص26.

6 انظر، حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص185 وما بعدها.

ويظهر أن الراغب منذ ذلك الحين التفت إليه ووضع أمام ناظريه سياق الكلام واللغة لمتابعته اللفظة القرآنية وتقلباتها في سياقات متعددة، فأراد أن يصل المتلقي إلى الفهم الصحيح ويقترب من مراد المتكلم تصويبًا لما يقع فيه بعضهم من أوهام واضطراب في تعيين المعنى المراد خاصة في كتاب الله، فجرى في مصنفه على هذه الطريقة والأسلوب واضعًا أمام عينيه أن النص لا بد أن يفسر بعضه بعضًا ليبرز للمتلقين أوضح صور الفهم والإدراك.

وجرت طريقة الراغب بأن يورد اللفظ المجرد ثم يذكر معناه القاموسي المعجمي ثم يورد الآية التي وظفته ويتبعها بآيات ومواضع، ولا يقتصر على المعنى المعجمي بل يعرج على قضايا سياقه وكلامية مما يُشْكِل أحيانًا، فهل يعد مصنفه تفسيرًا للغريب! أم قاموسًا معجمًا للفظة في مواضعها؟ أم صاحب تفسير موضوعي؟ أم بحثًا في استخدامتها المتعددة عند العرب؟

جاءت هذه الدراسة للنظر في موقف الراغب وبيانه، أهو سياقي أم لغوي معجمي؟ لأنه في أحيان كثيرة يُعرّج على الإعراب والتصريف، ويذكر ما جرى عليها من تغير في أوجه القراءات القرآنية، ويدخل في علم الكلام والمَنْطقة أحيانًا ! وينظر إلى اللفظة إذا خرجت من معناها اللغوي إلى الاصلاحي، لذا قسمت البحث إلى قسمين رئيسيين هما البعد اللغوي والبعد السياقي.

البعد اللغوي

اختار الراغب عنوانًا طريفًا لكتابه: "معجم مفردات ألفاظ القرآن" وبناءً على هذا أجرى طريقته في عرض مادته وتناول أبوابه، يجرد اللفظة ويدخل منها إلى معانيها المتعددة قصدًا إلى ملاحظة تدرجاتها في أماكنها، فقال[1]:" قطع: القطع فعل الشيء مدركًا بالبصر كالأجسام أو مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة فمن ذلك قطع الأعضاء نحو قوله تعالى: (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف)(الأعراف)، وقوله: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)(المائدة). وعند الرجوع إلى مصادر اللغة وقواميسها نلحظ أن المعنى ليس كما أورده المصنف، فهل أراد أن يؤسس لمعنى قرآني، ليس لغويًا؟ بمعنى أنه خص ذلك بما جاء في القرآن من مفردات، (فالفيروز أبادي) ذكرها: (قطعه، كمنعه قطعًا ومقطعًا وتِقِطّاعًا بكسرتين مشددة الطاء: أبانه، والنهر قطعًا وقُطوعًا: عبره أو شقه...)[2]، أما ابن فارس فإنه يقول: " قطع، القاف والطاء والعين أصل صحيح واحد، يدل على صرم وإبانة شيء من شيء، يقال قطعت الشيء أقطعه قطعًا، ... وتقاطع الرجلان، إذا تصارما"[3] .

---

[1] - الأصفهاني: الراغب، معجم مفردات الفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر للطباعة، بيروت، ص423.
[2] القاموس المحيط، باب العين فصل القاف.
[3] معجم مقاييس اللغة، 101/5 .

فيدور معنى اللفظة حول الصرم والإبانة، غير أن الراغب أضاف أن هذا الفعل واللفظ يدرك بالبصر والبصيرة معقولة بالأجسام والأشياء، وكأنه اختصر من وجه وزاد من آخر، حيث إنه زاد بعض المعاني التي تخص دلالة ألفاظ القرآن فاستشهد بما أوضحه من قطع الأعضاء وغيرها، موضحًا استخدام اللفظة في اللغة وتدرجها في حياة الناس.

ويقتصر أحيانًا على ما جاء في قواميس اللغة لا يجاوزها معنى فيقول: خبو: خبت النار تخبو سكن لهبها وصار عليها خباء من رماد أي غشاء، وأصل الخباء الغطاء الذي يتغطى به وقيل لِغشاء السنبلة خباء، قال عز وجل" كلما خبت زدناهم سعيرًا".(النساء)[1]. ويقول ابن دريد في الجمهرة:" وخبت النار تخبو خبوًا إذا خمدت"[2] . ويذكر الفيروزأبادي قريبًا من ابن دريد غير أنه يجعل اللفظ بعد أن يورد جذوره ثم يقول:" الخباء، ككساء من الأبنية ويكون من وبر أو صوف أو شعر...الخباء أيضًا غشاء البرَّة والشعيرة في السنبلة"[3]. فالمصنف اقتصر على اللفظة ومعناها اللغوي ولم يزد شيئًا غير إنه استشهد بالقرآن الكريم، وكأنه لم يرد أن يخرج إلى استعمالاتها اللغوية الأخرى قصرًا منه على ما جاء في القرآن الكريم حيث إن اللفظة لم تتكرر فيه كثيرًا.

ومما يدل على أنه يؤيد ألفاظ القرآن فحسب قصدًا إلى ما شرط على نفسه من عنوان كتابه فإنه يأخذ اللفظة أحيانًا ويورد الآية فورًا من غير أن ينظر إلى معناها القاموسي إلا بعد أن يستشهد بعدة مواضع منها كقوله في :" خرَّ: كأنما خرَّ من السماء" وقال تعالى: فلما خرَّ تبيَّنت الجن" وقال تعالى:" فخرَّ عليهم السقف من فوقهم" فمعنى خرَّ سقط سقوطًا يسمع منه خرير، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو"[4] والملاحظ أنه قصد قصدًا إلى بيان الآيات ومعاني ألفاظها ولم يرد المعنى القاموسي إلا لبيانه أصل الوضع والإستعمال ثم كيف وظفه القرآن الكريم، وبذا فإنه وافق المعاجم والقواميس فإنها جاءت: " الخرَّ: السقوط كالخرور أو من علو إلى سفل الخرير: صوت الماء والريح والعقاب إذا حفَّت...،[5] ومثله:"الخرير صوت الماء"[6].

وقد يذكر اللفظ من غير أن يأتي بالشاهد القرآني كالأبرص:" برص معروف وقيل للقمر أبرص للنكتة التي عليها، وسام أبرص سمي بذلك تنبيهًا بالبرص والبريص الذي يلمع لمعان الأبرص ويقارب البصيص،بصّ يَبِصُّ إذا برق"[7]. فعلى الرغم من ورودها في القرآن الكريم إلا أنه لم يورد الشاهد من قوله تعالى: (وأبرئ الأكمه والأبرص)(آل عمران:49).

وربما أخذ اللفظة وجاء بالشاهد من غير تفسير قاموسي ولا غيره لا يزيد عن أن يذكرها كما في لفظ:"جدث" قال الله تعالى:(يوم يخرجون من الأجداث) جمع الجدْث يقال جَدَث وجَدَفٌ وفي سورة يس: (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)[1].

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص143.

[2] ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسين، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط(1)، 1987م، 1/ 294 .

[3] القاموس المحيط، باب الياء فصل الخاء.

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص145

[5] القاموس المحيط، باب الراء فصل الخاء.

[6] ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، م. السعادة بمصر، ط(4)، 1382هـ - 1963م، ص133.

[7] معجم مفرردات ألفاظ القرآن، ص41، وانظر لفظ: كمه،ص459، لفظ: مريم ص487 .

ومما يؤكد قصده ألفاظ القرآن ذلك أنه تناول في لفظ:" صيص": (من صياصيهم) أي حصونهم وكل ما يتحصن به يقال له صيصة"[2]. ونحو ذلك قوله:" فز: قال: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) أي أزعج، (فأراد أن يستفزهم من الأرض) أي يزعجهم..."[3] وواضح من كل ذلك أنه يعتني باللفظ في القرآن الكريم وليس في وضع اللغة أساسًا، وبناء على ذلك أقام أغلب مصنفه بهذا المنهج ليكون ما بين اللغة واستخدامها وبين القرآن الكريم وتوظيفه.

ولما كان اللفظ يزاد فيه وينقص من تعدد التوظيف والاستعمال فكل زيادة في المبنى زيادة في المعنى فإنه لحظ ذلك فقال:" والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة، أدخل فيها الهاء تنبيهًا على وقوعها دفعة والمقام يكون مصدرًا واسم مكان القيام وزمانه نحو:" (إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري) (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد...)[4].فعندما كان القيام من الانسان وجاءت اللفظة في القرآن الكريم بزيادة الهاء نظر إلى الفرق بينهما على أن القيامة تقع دفعة واحدة، ولما كان القرآن الكريم ذكر المقام فإنه يكون لمكان القيام وزمانه ثم أورد شواهد متعددة من آيات الكتاب.

وأجرى التفريق بين لفظين بناء على الحروف وتبادلها أو نيابة بعضها عن بعض فقال:"محص: أصل المحص تخليص الشيء مما فيه من عيب كالفحص لكن الفحص يقال في إبراز شيء من أثناء ما يختلط به وهو منفصل عنه، والمحص يقال في إبرازه عما هو متصل به، يقال محصت الذهب ومحَّصْتهُ إذا أزلت عنه مايشوبه من خبث، قال: (وليمحص الله الذين آمنوا) (وليمحص الله ما في قلوبكم) فالتمحيص ههنا كالتزكية والتطهير"[5]. وبهذا نظر إلى الحرف المبدل من حرف آخر كيف تحول معناه واستدق حتى عنى شيئًا آخر من جراء إبدال الفاء بالميم.

ويفرق الراغب بين معنيين من حيث الاستخدام بناء على تقارب الحروف فيقول[6]:"عثى: العيث والعثيُّ يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العَيْث أكثر ما يقال في الفساد والذي يدرك حسًّا والعثيُ فيما يدرك حكمًا يقال عثِيَ يعْثى عثِيًّا وعلى هذا (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)، على أن الفيروزأبادي لم يفرق بينهما من حيث الاستخدام لكن جعلها في معنى الإفساد[7]. فعلى الرغم من تقارب الحروف واستخدامها إلا أنه فرق بينهما بأن جعل الأولى في الفساد المحسوس والأخرى فيما يدرك بالحكم، وتلك لفتة أرادها الراغب ليقصد مَنْ منهما جاءت في القرآن الكريم ووظفت لمعناها المراد، وبالمعنى نفسه جاءت عند ابن دريد[8] كالفيروزأبادي.

---

1 السابق ص87 ، وانظر ص102 لفظ: جيب، ص121، لفظ: حضب، ص151، لفظ: خفت، لفظ: قطن،ص424، لفظ: لدى، ص470 .

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص299.

3 السابق، ص393، وانظر في ص422، لفظ: قط، ص423 ، لفظ: قطمير ،وص541، لفظ: هزل، فإنه عمد إلى الآيات ثم أورد ما يخصها من المعنى القاموسي.

4 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص432.

5 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص483 .

6 معجم مفردات ألفاظ القرآن،333.

7 انظر القاموس المحيط باب الثاء فصل العين، وباب الواو والياء فصل العين.

8 جمهرة اللغة، 1/ 427 ، 1255/3 .

ويلمع إلى بعض الألفاظ بناء على فهمه من لغة العرب مختصرًا ذلك الفهم من غير ان يتوسع في معناه كقوله:" قرع: القرع ضرب شيء على شيء، ومنه قرعته بالمقرعة، قال: (كذبت ثمود وعاد بالقارعة)،(القارعة ما القارعة)[1]، ولم يزد على ذلك على الرغم من أن ابن منظور كتب في المادة نفسها صفحات عدة يفهم منها معنى الضرب[2]. ويلحظ أنه فعل الشيء نفسه في لفظة قرطاس ولم يزد أن قال القرطاس ما يكتب فيه، قال: (لو أنزلنا عليك كتابًا في قرطاس...) مما يدل على أنه أراد أن يجعله قاموسًا خاصًا بألفاظ القرآن الكريم التزاما منه بعنوان مصنفه، فأقام المعنى المفهوم من معاني اللغة ومراميها عامة وأورد الشاهد القرآني قصدًا إلى الاختصار من وجه، ومن آخر إلى ما أوضحه القرآن الكريم من ألفاظ عامة بين الناس يعرفونها، فليس من الحاجة أن يخوض في غمار اللغة وتقلباتها التي لا تخدم اللفظة ولا تزيد على المعنى شيئًا، وبدا ذلك واضحًا في ألفاظ عدة.[3]

ولما كانت الألفاظ في القرآن الكريم مما يأت على وجهين بناء على تناوب الحركات أو تغيرها فإنه يشير إليها ويزيل الإشكال عنهما مبرزًا لكل لفظ وضعه من الاستخدام، ففي لفظتي الرَّوْح والرّوح يقول: " الرَّوْح في الأصل واحد، وجعل الرّوح اسمًا للنَّفَس... وذلك لكون النَّفَس بعض الروح كتسمية النوع باسم الجنس... وهو المذكور في قوله: (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)...وإضافته إلى نفسه إضافة مِلْك وتخصيصه بالإضافة تشريفًا له وتعظيمًا... وقوله: (لا تيأسوا من رَوْح الله) أي من فرجه ورحمته وذلك بعض الرَّوْح)[4].

فأثبت استخدام كل لفظ ثم فرق بينهما ووضحهما ليجد المتلقي مراده حين يستعرض مصنفه،فاختصر بهذه الطريقة على الدارس الضرب في صفحات الكتب ومتونها بحثًا عن إختلاف اللفظين ومعانيهما المترتبة على ذلك وكأنه يلحظ الحاجة التي تتولد من تدبر آيات القرآن الكريم.

وأقام الشيء نفسه في التفريق بين لفظ"عام وسنة" من المترادفات فقال:" العام كالسنة، لكن كثيرًا ما تستعمل السنة في الحول الذي يكون فيه الشدة أو الجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة والعام بما فيه الرخاء والخصب، قال: (عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون)، وقوله: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا)[5]. فلما كان اللفظان يستخدمان للدلالة على الزمن لكن القرآن وظفهما لأجل غاية لا بد من أن تكون مرادة لمعنى دقيق أثبت ذلك المصنف لينبه على أن ألفاظ القرآن الكريم لا بد من يحمل كل منها معنى مخالفًا للآخر ومراد لسياقه ومقامه، وأجرى الشيء نفسه في لفظ بعث من البعث ورسل من الارسال فقال:" أصل الرُّسل الانبعاث على التؤدة ويقال ناقة رسلة سهلة السير.... ومنه الرسول المنبعث وتُصوِّر منه تارة الرفق فقيل على رسلك"[6].

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص416.

[2] انظر لسان العرب، باب العين فصل القاف مادة قرع، وكذلك القاموس المحيط، باب العين فصل القاف مادة قرع، وجمهرة اللغة، 2/ 769 .

[3] انظر في ذلك لفظ: محق، ص484 ، مدن، ص485 ، نسج، ص489، وبق، ص547، وجل، ص550، لؤلؤ، ص466، وغيرها.

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص210 – 211 .

[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص366.

[6] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص200، وانظر في لفظ البعث، ص50، وانظر كذلك لفظ: بيع، ص65، وشري، ص267 ، فإنه فرق بينهما بناء على أن كلا منهما يصح أن يقع مكان الآخر.

ومن دقة الراغب في تناول الألفاظ أنه يورد لفظًا ليبني على الآخر مقابلة المعنى والفهم المتولد من جراء مقابلة ومقايسة تتم عن قدرته في استحضار ألفاظ اللغة ودقتها في الوصف والتحديد فيقول في مادة " جل": "أو لأنه يجلُّ أن يدرك بالحواس وموضوعه للجسم العظيم الغليظ ولمراعاة معنى الغِلظِ فيه قوبل بالدقيق، وقوبل العظيم بالصغير، فقيل جليل ودقيق، وعظيم وصغير، وقيل للبعير جليل وللشاة دقيق اعتبارًا لأحدهما بالآخر.... ثم صار في كل كبير وصغير"[1]. فأراد أن يقف المتلقي على بعض خصائص الألفاظ من حيث استخدامها وأصل وضعها، ليعلم كيف يتناول تأويل آيات القرآن الكريم لا سيما أنه أثبت ذلك في مقدمة مصنفه فقال:" ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعارف لمن يريد أن يدرك معانيه"[2] ، وهذا ما أشار إليه الزركشي في البرهان: " فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه وإطلاق للمحتبس عن الفهم به"[3]. لهذا فإنه قابل بين الجليل والدقيق وغيرها،ففي المنظور البشري ليس هناك جليل إلا الله تعالى، فلما استخدمه الناس في لغاتهم وحديثهم كان لزامًا أن يزيل الابهام حول معنى الجليل الذي يقصد به المولى سبحانه وبين ما يتداوله الناس في حياتهم.

وأجرى المقابلة نفسها بين لفظتي القلة والكثرة فقال:" القلّة والكثرة يستعملان في الأعداد كما أن العِظَمَ والصِغر يستعملان في الأجسام، ثم يستعار كل واحد من الكثرة والعِظم، ومن القلة والصغر للآخر، وقوله: (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلًا أي وقتًا)"[4]. فلما كانت الكثرة والقلة مما يستعمل في خطاب الناس بعضهم أراد أن يوصل لهم أن هذه الألفاظ تستخدم في الأعداد فقط في أصل الوضع ثم جرى بعد ذلك خروجها إلى معان أخرى، وذلك مما يعين على التفسير والفهم لآيات القرآن الكريم، فوضع المتلقي والمخاطب والمتصدي لتفسير القرآن على حقيقة كثير من الألفاظ التي ربما داخلها من جانب الدارس بعض الوهم والاضطراب ليبتعد عنها ويقف عليها كي لا يقع فيما يقع فيه بعض المتوهمين.[5]

وكما وقف عند مقابلة الألفاظ وقف عند المتضايق منها، مما يقتضي النظر إليها على أنها تفتح باب التفكر في توظيفها إمعانًا في توضيح دلالتها ومفهومها فقال:" والضِّعْفُ هو من الألفاظ المتضايفة التي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر كالنِّصْف والزَّوْج وهو تَركُّب قدْريْن متساوييْن ويختص بالعدد، فإذا قيل أضعفْت الشيء وضعَّفْته وضاعفته ضممت إليه مثله فصاعدًا"[6]. وما فصَّل ذلك إلا ليبين أن مثل هذه الألفاظ يكثر دورانها في القرآن الكريم وتتعدد سياقاتها مما يشكل فهمه وإدراكه، فبينها مستخدمًا دلالة المضايفة ليكون الدارس على دراية بها إبعادًا له عن الاضطراب والوهم.

---

1 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص93 .

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ن من المقدمة.

3 الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تخريج الأحاديث: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ - 2001م، 163/2 .

وانظر: أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، عناية: صدقي محمد جميل، دار الفكر، 1412هـ - 1992م، 26/1 .

4 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص425 .

5 انظر في تلك الألفاظ من كتابه: ص113 : حرك، ص121: حض، ص153: خفض، ص271: شقا.

6 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص305 .

ومن الألفاظ المتضايفة كذلك، الكبير والصغير، فإنه أتى على استخدامها وتوظيفها واستعارتها فيما بينها من المعاني فقال:" الكبير والصغير من الأسماء المتضايفة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض، فالشيء قد يكون صغيرًا في جنب شيء وكبيرًا في جنب غيره، ويستعملان في الكمية المتصلة كالأجسام وذلك كالكثير والقليل، وفي الكمية المنفصلة كالعدد، وربما يتعاقب الكثير والكبير على شيء واحد بنظرين مختلفين نحو: (قل فيهما إثم كبير) وكثير، قرئ بهما، وأصل ذلك أن يستعمل في الأعيان ثم استعير للمعاني نحو قوله: (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) وقوله (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر)وقوله: (يوم الحج الأكبر) إنما وصفه بالأكبر تنبيهًا أن العمرة هي الحجة الصغرى كما قال صلى الله عليه وسلم "العمرة هي الحج الأصغر"[1].

فنظرته تلك قائمة بناء على أصل اللغة ثم تدرج فيهما من حيث الاستخدام والتوظيف وخروجها إلى معان مجازية أو استعارة اللفظ لغير معناه، وهذا مما أشار إليه الجرجاني فقال:" وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض[2].

ويعتبر الاستعمال والتدرج من القضايا التي أعطت اللغة توسعًا في بيانها وأبعادها" فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة ومن تتنزل في الأفكار منزلة التوهم الطبيعي[3]"، ويدرج اللفظ أحيانًا إلى معان أخرى ليفهم منه دلالة جديدة طريفة " ويدرج اللفظ المفرد بذاته في اللغة إلى الذي يليه حتى يكون جملة مفيدة للمتلقي من خلال تتابع المعاني والدلالات ليصل إلى الفهم"[4]، فحديث الراغب عن الأسماء المتضايفة يعطي المتلقي بعدًا جديدًا في إدراك ألفاظ القرآن الكريم وتوظيف دلالتها وأين تقع من سياقها، ثم خروجها من استعمال إلى آخر حتى لا يكون المعنى اللغوي اللفظي قاصرًا على مفهوم محدد ضيق، وذلك مما عرف بظاهرة التوسع اللغوي،" لأن تفنن اللغة وتوسع ألفاظها ومدلولاتها يقتضي تغيير ضروب الكلام واللفظ واتساع دائرة النص"[5]، وبهذا يكون الراغب في مصنفه دائم النظر إلى اللفظ وتضايفه ويعني ذلك نظره إليه على أنه مما يعطي دلالة جديدة من حيث التوظيف والاستخدام".[6]

وعلى الرغم من أن مصنف الراغب للألفاظ ومعانيها فإنه لم يغفل القضايا النحوية، فتطرق إلى وجوه إعراب الألفاظ ووجَّهها بناء على ما تحمل من آفاق في مستويات الفهم،ومما حمله على ذلك بعض وجوه القراءات أو دخول بعض الأدوات والحروف على اللفظ، وأحيانًا موضع اللفظ من النص جعله يقف عنده شارحًا أو موضحًا فقال: " (اعملوا آل داوود شكرًا) فقد قيل شكرًا انتصب على التمييز ، ومعناه اعملوا ما تعملونه شكرًا لله، وقيل شكرًا مفعول لقوله اعملوا وذُكر اعملوا ولم يقل اشكروا

---

1 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص437 .

2 الجرجاني، عبدالقادر، دلائل الإعجاز، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط(1)، 1983م، ص173 .

3 الرافعي ، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ط (2)، 1940م، 2/ 238 .

4 الزهيري، محمود حسين، أثر السياق في توجيه المعنى القرآني من خلال جزء عم، دار وائل، عمان، ط(1)، 2014م، ص86 .

5 السابق، ص73 .

6 انظر في الأسماء المتضايفة: ص311، ص321، ص420، ص490.

لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح"[1] ، فصنيعه هذا يؤكد أنه ما دلف إلى النحو إلا ليزيد المعنى وضوحًا لكلمة الشكر ومقتضياتها، ويظهر أنه نقل الإعراب من غيره بصيغة " قيل" وجعل شكرًا منصوبًا على التمييز، ولم أجد أحدًا من كتب إعراب القرآن الكريم أو التفسير ذكر أنها تمييز[2]، على أنه ذكر أنها نصبت على المفعولية أيضًا لكنه تابع بعدها توضيحًا كيف يكون الشكر فذكر ثلاثة أصناف منه، ثم وازن بين قوله اعملوا واشكروا ليتمم معناها ومرادها.

يوظف الراغب قضايا النحو التي تعين على فهم مراد اللفظة، فيما يشكل من الوصول إلى معناها إذا وظفت خارج إطارها المعهود ففي قوله تعالى: (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ويقول: " وريح عقيم يصح أن يكون بمعنى الفاعل وهي التي لا تلقح سحابًا ولا شجرًا، ويصح أن يكون بمعنى المفعول كالعجوز العقيم وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر"[3]. فتركيزه على إعراب اللفظ ومكانه النحوي جاء من جراء إرادة الفهم والتوضيح، لأن صفة العقم خاصة بما يلد وينتج فلما وصفت الريح به كان مما يلزم الوقوف عليه لمعرفة مكانها ووضعها النحوي ليبين فهمًا ويصل إلى مرادها، على أن كتب إعراب القرآن الكريم جعلوا مكانها الإعرابي مفعولا[4]، أما المفسرون فلم ينظروا إلى مكانها الإعرابي قط. وتعد هذه لفتة من لفتاته النحوية الطريفة إذ إنه بني عليها ما يفيد المعنى ويوصل إلى الفهم المراد.

ووقف عند قوله تعالى: (من السماء من جبال فيها من برد) قال:"تقديره أنه ينزل من السماء جبالًا فمِنْ الأولى ظرف والثانية في موضع المفعول والثالثة للتبيين كقولك، عنده جبال من مال، وقيل يحتمل أن يكون قوله من جبال نصبًا على الظرف على أنه ينزِّلِ منه، وقوله: " من برد"، نصب أي ينزِّلِ من السماء من جبال فيها بردًا، وقيل يصح أن يكون موضع مِنْ في قوله: " من برد" رفعًا و" من جبال" نصبًا على أنه مفعول به كأنه في التقدير وينزِّلِ من السماء جبالا فيها برد ويكون الجبال على هذا تعظيمًا وتكثيرًا لما نزل من السماء"[5]. ويلحظ أن هذه التفصيلات مما يسوقها أصحاب إعراب القرآن الكريم والموسوعات الإعرابية[6]، ولا يخطر ببال أحد أن تكون في مصنف الراغب لاقتصاره على الألفاظ ومعانيها، وذلك مما يؤكد توسعة في علم النحو وإحاطته بقضاياه، ، على أنه خالف في إعراب مِنْ الأولى من بعض الوجوه إذ اعتبرها أصحاب إعراب القرآن الكريم ابتدائية بينما عدها هو ظرفًا !

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص272 .

[2] انظر: الدرويش، محي الدين، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، ط3، 1412 – 1992م، 75/8، والنحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، ت: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط2، 1405 – 1985، 3/ 336، والبحر المحيط في التفسير، 8/ 529، والزمخشري: محمودبن عمر الكشاف عن حقائق التنزيل، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(2)، 1421هـ - 2001م، 3/ 582، والقرطبي: أبوعبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن،دار الكتاب العربي، 14/ 277، والقاضي: د. محمد محمود، إعراب القرآن الكريم، الصحوة، ط(1)، 1431هـ - 2010م، ص856 .

[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص355 .

[4] انظر: إعراب القرآن، الدرويش، 9/ 317، وإعراب القرآن وبيانه، 1042 .

[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص495.

[6] انظر إعراب القرآن للدرويش كيف توسع فيها ما يشبه كلام الراغب، 6/ 623، وإعراب القرآن للنحاس، 3/ 142 .

ثم إنه سامى فيها علماء التفسير[1] مما يؤكد أنه أراد من مصنفه أن يدخل في هذه المباحث الدقيقة إشارة إلى تفصيل ما يشكل من بعض الألفاظ وموقعها الإعرابي وفهمها.

ومما أورده مستفيضًا في شرحه كذلك الأدوات، فلقد أثبتها مبينًا موقعها واستخداماتها وفوائدها في الجملة،وهل هي حروف أم أسماء؟ فقال: "ما: عشرة خمسة أسماء وخمسة حروف، فإذا كان اسمًا فيقال للواحد والجمع والمؤنث على حدٍ واحد، ويصحُّ أن يعتبر في الضمير لفظه مفردًا وأن يعتبر معناه للجمع."[2]، ثم أتى على بيانها وشرحها واستخدامها واستشهد على كل ما ذهب إليه بآيات من القرآن الكريم، ودلف بعدها إلى أقسام الإسمية والنكرة والاستفهام والتعجب وثنى بالحرفية المصدرية، والنفي والكافة والمسلطة والزائدة والحجازية والتميمية، وكأنه ينظر في كتاب سيبويه[3] في تفصيلات "ما" على الرغم من أنها قضايا نحوية شائكة وتفصيلات مطولة إلا أنه أنه اختصرها بطريقة فنية بشواهدها، ووقف عند كثير من الأدوات والحروف وغيرها[4]، وتعددت وجوه الإعراب والنحو في مصنفه بنحو ملحوظ[5].

ومن قضايا النحو انعطف الراغب إلى القضايا الصرفية لأثرها الدقيق على المعنى،ولما لصيغها من جمال في التوظيف ونظر إلى الإعلال والإبدال وغير ذلك، واتخذ منها طريقًا للتفريق بين المعاني والصيغ، وعلى هذا حمل بعض الألفاظ إلى ما يتوافق مع مكانها وموضعها في الآية كما في قوله تعالى: (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فقال:" عمي: العمى يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول أعمى، وفي الثاني أعمى وعَمٍ،.... وقوله: ومن كان في هذه أعمى... فالأول اسم فاعل والثاني قيل هو مثله، وقيل أفعل من كذا الذي للتفضيل لأن ذلك من فقدان البصيرة، ويصح أن يقال فيه ما أفعله وهو أفعل من كذا،ومنهم من حمل قوله تعالى: (ومن كان في هذه أعمى) على عمى البصيرة. والثاني على عمى البصر وإلى هذا ذهب أبو عمرو فأمال الأولى لما كان من عمى القلب وترك الإمالة في الثاني لما كان اسمًا، والاسم أبعد من الإمالة"[6] فدقة نظره تلك تدل على تمكنه من فن الصرف وضروبه،كي يحمل عليها معنى يريد منه الوصول إلى الفهم والإدراك، وعرج على القراءات القرآنية لعظم شأنها في اللغة[7]، وارتباطها بالمعنى، وكانت حجة أبي عمرو أكثر إقناعًا حين فرق

---

[1] انظر ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(1)، 1420هـ - 2000م، 302/3، والبحر المحيط، 8/ 56، والكشاف، 3/ 251، وتفسير القرطبي، 12/ 289 .

[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص479- 480 .

[3] انظر: سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط(5)، 1430هـ - 2009م، 5/ 352 ، الفهارس كيف فصلها المؤلف، وانظر: ابن هشام: جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت: د. مازن المبارك ومحمد علي، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، ط(1)، 1399هـ - 1979م، 1/ 327 .

[4] انظر، ص533 في حرف، ها، ص31، حرف الباء، ص68، حرف التاء، ص436 حرف الكاف، ص463 حرف اللام .

[5] انظر في القضايا النحوية، ص350، ص361، ص408، ص459، وغيرها كثير .

[6] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص361 .

[7] انظر في إمالة أعمى، ابن الجزري أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، إشراف محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، 2/ 43.

بين اللفظين معنىً فجعل الإمالة في الأولى على أنها صفة بمنزلة أحمر وأصفر، والثاني بمنزلة أفعل منك أي أعمى قلبًا"[1]، فالتصريف أدى دورًا في ترجيح المعنى وبيانه،وذلك مما وافق فيه الراغب المفسرين[2].

ونفذ من جزئيات التصريف كالإدغام إلى معنى حمل عليه مراد اللفظة فقال:" دثر قال الله تعالى: (يا أيها المدثر) أصله المتدثر فأدغم وهو المتدرع دثاره، يقال دَثَرْتُهُ فَتدثَّر، والدِّثار ما يُتَدثَّر به، وقد تدثّر الفحل الناقة تسنَّمها، والرَّجل الفرس وثب عليه فركبه"[3] فإنه انطلق من الإدغام[4] في اللفظ إلى شرح المعنى بعد بيان واقعها الصرفي ليكون أعون على فهم المعنى وتقريب اللفظ في أصل وضعه.

وحين عرض للفظ ماء أرجعها إلى جذرها اللغوي فقال:" ويقال ماه بني فلان، وأصل ماء موهٌ بدلالة قولهم في جمعه أمواه ومياه في تصغيره مُوَيْهٌ، فحذف الهاء وقلب الواو، ورجل ماء القلب كثر ماء قلبه، فماه هو مقلوب من مَوَهٍ، أي فيه ماء، وقيل هو نحو رجل قاهٍ، وماهت الرَّكِيَّة تميه وتماه وبئر ميِّهة وماهةٌ، وقيل ميهة، وأمَّاه الرجل وأمهى بلغ الماء"[5] ويظن أن متابعته اللفظ في تصريفه وأصله لكثرة دورانه في القرآن الكريم، ليضع المتلقي على أساس اللفظ وما جرى عليه من كثرة الاستخدام والدوران سهولة ويسرًا على عادة العرب في كلامها.

ومما ذكره لفظ هلم فقال:"أن أصله ها لُمَّ من قولهم لمَمْتُ الشيء أي أصلحته فحذف ألفها فقيل هلُمَّ، وقيل أصله هَلْ أمَّ كأنه قيل هلْ لك في كذا أمَّهُ أي قصده فركِّبا"،[6] ومما يستدعي التأمل أنه تابع ألفاظًا كهذه بيانًا توضيحًا على الرغم من أنه مصنف للألفاظ، يكفه ذكر اللفظ ومعناه، فما الذي حمله على هذه المتابعة الدقيقة لمثل تلك القضايا؟ يظن أنه أجال الفكر فيها بيانًا لما يأتي في سياقها جلاءً للفهم والمعنى وصولًا لإدراك أصلها أنها عربية فصيحة استخدمتها العرب قبل الإسلام ونزول القرآن الكريم، وجرت في لغتها لفتًا لنظر المتلقي أن أصل كلام القرآن ومفرداته قائمة على لغة دارجة فيما بينهم وذلك مما أشار إليه في المقدمة فقال:" فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"[7]، وقد برزت تلك الوقفات الصرفية في مصنفه في عدة مواضع[8].

---

[1] ابن زنجلة أبو زرعة عبدالرحمن، حجة القراءات، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(5)، 1422هـ - 2001م، ص407.

[2] انظر: تفسير القرطبي، 10/ 298، والكشاف، 2/ 638، وتفسير القرآن العظيم، 3/ 56 .

[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص167 .

[4] والإدغام باب كبير من أبواب الصرف والتصريف بوب عليه غير واحد من علماء الصرف، انظر الحملاوي: الشيخ أحمد، شذى العرف في فن الصرف، ص130، كيف يوضح أساس الفعل وجذره، ومادخله من إدغام، والراجحي: عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص203 ، وما بعدها .

[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص498 .

[6] معجم مفردات ألفاظ القرآن ،ص543

[7] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ن من المقدمة .

[8] انظر ص17، ص54، ص84، ص171، ص357، ص377، ص522.

ومما يتمم النظر في البعد اللغوي أن الراغب يتخذ من المفردات طريقًا إلى المباحث البلاغية بناء على استخدام اللفظ وجريانه بين أصحاب اللغة، وما خرج إلى استعارة أو مجاز وكناية وتشبيه، كحديثه عن الجنة بقوله:" وسمِّيت الجنة إما تشبيهًا بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون، وإما لستره نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)"[1] فخرج من معنى الجن وهوالستر كما أشار إليه في حديثه عن مادتها إلى ما شبهت به بعد ذلك، تقريبًا للصورة وتوضيحًا لها لأن جنة الآخرة لا يستطيع أحد أن يتصورها إلا تشبيهًا، فنفذ من ذلك التشبيه إلى توضيح ما أراد توسيعًا لأفق المتلقي ووعيه .

وإذا كان اللفظ مما يجري في طريقين تشبيه وحقيقة أشار إليه بيانًا لأصل الوضع، مستلا من القرآن الكريم ما يؤيد وجهته فقال:" لبس الثوب استتر به وألبسه غيره ومنه (يلبسون ثيابًا خضرًا) واللباس واللُّبوس واللَّبْس ما يُلْبس قال تعالى: (قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سؤآتكم)، وجعل اللباس لكل ما يغطِّي من الانسان عن قبح فجل الزوج لباسًا... وجعل التقوى لباسًا على طريق التمثيل والتشبيه قال تعالى: (ولباس التقوى) ... وجعل الجوع لباسًا على التجسيم والتشبيه تصويرًا له"[2]. لذا ساق ما يؤكد مذهبه ورأيه من الآيات، وفرق بين ما كان حقيقة أو تشبيهًا وتجسيمًا ليجلي اللفظ في استخداماته المتعددة ويعتبر ذلك بعدًا واضحًا في أعماق اللغة والاستخدام ومعرفته بتقلبات اللفظ في سياقه وتعدد دلالاته، ولا يُظن أنه فعل هذا إلا ليضع بين يدي من يتصدى لكلام القرآن الكريم ومعانيه أفقًا واسعًا في دقة القرآن الكريم في توظيف مفرداته بطريقة دقيقة تتطلب إعمال الذهن والتفكر في تحصيل مرادها.

ويتناول لفظ اليد بعد أن استخدمت دلالة على الجارحة ثم أخذت في مستويات عدة من التوظيف فيقول:" وشبَّه الدهر فجُعِل له يد في قولهم يد الدهر ويد المِسْند"[3] ومما يلحظ أنه توسع في الألفاظ التي يكثر فيها الاستخدام ويدخلها التشبيه تأكيدًا لما يقصد إثباته من أن اللغة وألفاظها توظف في سياقات متعددة تحتمل آفاقًا في المعنى ومستويات في الفهم ، وكذلك أوضح في لفظ نحس فقال:" قال تعالى: (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) فالنحاس واللهيب بلا دخان وذلك تشبيه في اللون بالنحاس"[4].

ولما كانت الاستعارة مما يرتقي باللفظ انزياحًا خارجًا عن مكانه إلى مكان أكثر بعدًا في التوظيف فإنه قال:" جنب أصل الجنب الجارحة، وجمعه جنوب... وقال عز وجل: (قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم) ثم يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك[5].وكأنه ينظر إلى عادة العرب في توظيف كلامها وطرق إبانتها عن نفسها، وتلك لفتة طريفة من الراغب خرج بها إلى النظر إلى مفردات القرآن الكريم أنها جاءت على عادة العرب في كلامها وليست بدعة جديدة، على أن

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص96 .
[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص466.
[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص575 .
[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن ص506، وانظر ص469 في لفظ لحم، ص493 في لفظ ملك، ص105، لفظ حبل .
[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص97 .

المفسرين منهم من عده من باب المجاز لأن الجنب مستحيل على الله لأنه جارحة[1] لكن نظرة دقيقة إلى اللغة يُرى أن الاستعارة أجمل من المجاز والحذف والتقدير.

ويرى أن الاستعارة توظف حين تخرج اللفظة من استعمالها في الأجسام إلى المعاني في قوله:" لين: اللين ضد الخشونة ويستعمل ذلك في الأجسام ثم يستعار للخُلُق وغيره من المعاني فيقال فلان لين، وفلان خشن، وكل واحد منهما يمدح به طورًا، ويذمُّ به طورًا بحسب اختلاف المواقع قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم)"[2]، وبذلك يكون الراغب نظر أن الألفاظ تستخدم حسب سياقها وطريقة أدائها المعنى المطلوب والمراد، وليست حكرًا على معنى غير آخر.

ويتابع الراغب اللفظ في انزياحه من توظيف لآخر فقال:" نكح: أصل النِّكاح للعقد، ثم استعير للجماع ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد، لأن أسماء الجماع كلها كنايات لستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشًا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنوه"[3]، ولعل المصنف فرق في الاستخدام بناء على أصل اللغة وتوظيف أصحابها، فالقواميس نظرت إلى النكاح على أنه العقد والوطئ[4]، بينما المفسرون اختلفوا حول اللفظ وحقيقته أعقد أم وطئ[5]، فلما كان مصنفه للمفردات وليس للشرح والتطويل ذكر ما فيها من انزياح ولم يطل لما جرى من الخلاف في استخدام اللفظة، في أصل وضعه، لكن إشارته إلى الإستعارة كانت أجمل وأليق، طرافة في خروجها من وضع إلى وضع ومن استخدام إلى استخدام[6].

وأما الكناية وهي من أجمل مباحث البلاغة أدبًا وترفعًا عن التصريح وارتقاء وقصدًا إلى الإفهام فإنه أنار بعض جوانبها فقال:" لوى: اللَّيُّ فَتْل الحبل، يقال لويته ألويه ليًّا.... (لوّوْا رءوسهم) أمالوها، ولوى لسانه بكذا كناية عن الكذب وتخرَّص الحديث قال: (يلوون ألسنتهم بالكتاب) وقال: (ليًّا بألسنتهم)"[7] فالكناية لأجل إيصال معنى مراد التفت إليه المصنف توضيحًا لفهم المراد، وكأنه يلحظ أن الكناية هنا كانت أبلغ من التصريح بالكذب لما صاحب الحدث من حركة مع القول والفعل.

وفي لفظ "قصد" ألمع إلى الكناية بعد أن جعله اللفظ على ضربين فقال: "والثاني يكنَّى به عمَّا يتردَّد بين المحمود والمذموم وهو فيما يقع بين محمود ومذموم كالواقع بين العدل والجور والقريب والبعيد وعلى ذلك قوله: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم

---

1 انظر البحر المحيط، 9/ 213، بينما القرطبي والزمخشري عدوها من باب الحذف والإيجاز، انظر: الكشاف، 4/ 140، والقرطبي، 15/ 271.

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص478 .

3 معجم مفردات ألفاظ القرآن،: ص526 .

4 انظر القاموس المحيط باب الحاء فصل النون "نكح"، ولسان العرب، باب الحاء فصل النون "نكح" .

5 انظر الرازي: ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي، قدمه، محي الدين الميس، دار الفكر، بيروت، 1415هـ - 1995م، 6/59 -60، والبحر المحيط، 2/ 400 – 401 .

6 تطرق الراغب إلى ألفاظ كثيرة خرجت إلى الاستعارة مثل لفظ: جمل، ص95، خوض، ص161، كدى، ص444، نشر، 514، وغيرها.

7 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص477.

مقتصد)"[1] وهذه لفتة خرج بها إلى الكناية عما يكون بين حالين أراد أن يوضحها من جراء حديثه عن القصد والإعتدال، ويلحظ أنه تحدث عن ألفاظ جرت على الكناية أغلبها فيما يستقبح ذكره والتصريح به[2].

وعلى طريقته في تناول الألفاظ وتوظيفها خص الراغب مجموعة من الألفاظ والمفردات بتحوّرِها إلى مصطلح، وخروجها من المعنى القاموسي إلى الاصطلاحي، نظرة فاحصة منه إلى أثر القرآن في تحويل بعض الألفاظ إلى مصطلح إفادة إلى ما وسَّع من دلالات من جراء تداولها وبيانًا لأثَّر القرآن في اللغة[3]، ففي حديثه عن لفظة "جرح" من قوله تعالى: (والجروح قصاص) قال:" وسُمّي القَدْح في الشاهد جُرْحًا تشبيهًا به"[4] فخرج باللفظ من معناه القاموسي إلى الاصطلاحي بيانًا لما جرى عليه من تحوير في دلالته، وذلك من القضايا التي فرضها علم مصطلح الحديث في الجرح والتعديل في الرواية ونقلها، بل إن مصنفات وضعت ووسمت عنوانها بالجرح والتعديل ككتاب: الجرح والتعديل للرازي[5]، وغيرها في علم الرجال وما يتبعها من علم التراجم والأحوال.

وحين أورد لفظ"حرم" ساق معناها القاموسي، ثم استشهد بالآيات وأتبعها بقوله:" المحرَّم بالشرع كتحريم بيع الطعام بالطعام تفاضلا[6] فإنه لم يكفه أن ذكر المصطلح حتى مثَّل لذلك بأحد أنواعه ومقتضاياته وتعتبر هذه اللفظة من الألفاظ التي أحياها القرآن الكريم وحوَّل دلالاتها إلى الدلالة الشرعية[7]، فأخذت مكانًا عاليًا في المصطلح الشرعي بعد أن كانت لفظة تعني المنع.

على أن الراغب صرح في بعض المفردات أنها إسلامية التسمية والاستخدام، فقال في مفردة: فرض،" وقيل: بل لأن فريضة البقر اثنان تبيع ومسنِّة، فالبيع يجوز في حال دون حال، والمسنِّة يصحُّ بذْلها في كل حال فسُمِّيت المسنة فارضة لذلك، فعلى هذا يكون الفارض اسمًا إسلاميًّا"[8] فمتابعته لما يجري على اللفظ من تحويل للدلالة حثيث كي يزيل الأشكال ويوضح المقصود ويبرز الدلالة المنشودة.

ومن المصطلحات الشرعية التي وقف عليها الراغب: "قرن" لما لها من دلالة شرعية تخص أعظم فرائض الإسلام الحج فقال:" وناقة قرون إذا دنا أحد خِلفيْها من الآخر، والقِرانُ الجمع بين الحج والعمرة ويستعمل في الجمع بين الشيئين"[9]. ولم يكتف بذلك بل تابع المصطلح إن كان له دلالة أخرى فقال في الموضع نفسه:" وسمّي عَفْلُ المرأة قَرْنًا تشبيهًا بالقرن في الهيئة،

[1] السابق، ص419 .
[2] انظر حديثه في الألفاظ التالية: فرش، حسَّ ، نزل، وطئ وكلها تخص الجماع وتداعياته مما تجمل فيه الكناية.
[3] انظر باب تأثير القرآن الكريم في اللغة والأدب، ص47- 50، الأدب الراشدي رؤية ومنهج ، الزهيري، محمود حسين، دار وائل، ط(1)، 2015.
[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص88 .
[5] انظر في الجرح والتعديل، الرازي: أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم، كتاب الجرح والتعديل، ط(1)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند،ص ب من المقدمة.
[6] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص113 .
[7] انظر: الزهيري: محمود حسين، تأثير القرآن في الشعر حتى نهاية العصر الأموي، دار وائل، ط(1)، عمان، 2015م، ص70 وما بعدها .
[8] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص390 .
[9] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص417 .

وتأذى عُضْو الرجل عند مباضعتها به كالتأذي بالقَرْن"[1] وتعتبر تلك اللفتة من أهم متابعاته للفظ في المصطلح نفسه أين تتحور دلالته إلى مصطلحات شرعية مختلفة، وقد نص الفقهاء على القرن فيما يخص عيوب الزواج كالمصطلح وغيره[2].

ولم يقتصر الراغب على المصطلحات الشرعية بل إنه ذكر مصطلحات علوم القرآن وما يخصها من دلالات فعند ما عرض للفظ"سبع" فقال:" السبع الطوال من سورة البقرة إلى الأعراف وسمِّي سور القرآن المثاني لأنه يثني فيها القصص، ومنع السَبع والسبيع، والسِّبعُ في الورود، والأسبوع جمعه أسابيع، ويقال طفت بالبيت أسبوعًا وأسابيع..."[3]، وتعتبر السبع الطوال من مصطلحات علوم القرآن وتحزيبه وأسماء سوره[4] وذلك مما يدل على سعة ثقافته بقضايا علوم القرآن الكريم وربطه للفظة مع مصطلحها حين التعرض لها، وإذا كان المصطلح ينفتح على آخر فإنه يورده من جراء تتبعه له كما في لفظ الأسبوع وهومصطلح شرعي يخص الطواف بالبيت[5]، فلم يقتصر في شرحه على المفردات فحسب إنما نفذ منها إلى ما اصطلح عليه فيما بعد عند أهل العلم والتخصص[6].

ثم تجاوز ذلك إلى مصطلحات أعمق وأكثر تخصصًا في علوم أخرى كالهندسة، فقال عندما تناول لفظ"خط" فقال:" الخطُّ كالمدِّ، ويقال لما له طول والخطوط أضرب فيما يذكره أهل الهندسة من مسطوح ومستدير ومقوِّس وممال، ويعبَّر عن كل أرض فيها طول بالخط كخط اليمين"[7]، ويؤكد هذا سعة إطلاعه على علوم أخرى غير العلوم الشرعية واللغوية، مما يزيد من اتساع مصنفه إلى قضايا غير شرح المفردات الخاصة بالقرآن الكريم.

ولعله أراد أن يؤكد تداخل العلوم ونفاذها إلى بعضها بأن القرآن الكريم حوى كل العلوم وخط خطوطها الأولى، وذلك سبق له وزيادة في مكانها.

ومما ينبغي ذكره أن مصطلحات النحو والصرف نالت اهتمامه والوقوف عليها وبيانها، فعندما ساق لفظ لفَّ من قوله تعالى: (جئنا بكم لفيفًا) تدرج إلى مصطلح صرفي فقال: :"واللفيف من الناس المجتمعون من قبائل شتىً وسمَّى الخليل كل كلمة اعتلَّ منها حرفان أصليان لفيفًا"[8] ويلحظ أنه ذكر المصطلح ولم يعرج على أقسامه اكتفاءً بذكره كبيان للمتلقي أن مصطلحًا في الصرف أطلق عليه الخليل لفيفًا وذكرته كتب التصريف[9]، وكأنه يريد أن يعرض في اللفظة كل ما يخصها وما تتحور دلالتها فيه، ربما من باب شمولية اللفظ واتساع أفقه وبيان مقدرة العربية على الاصطلاحية من حيث كونها لغة حية تحمل في طياتها كنوزًا زاخرة لمن يتابع ويتفكر.

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص417 .

[2] انظر: ابن قدامة، عبدالله بن أحمد، المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 651/6.

[3] معجم مفردات الفاظ القرآن، ص227 .

[4] انظر البرهان في علوم القرآن، 1/ 307. وانظر ص395 في مصطلح المفصل من القرآن.

[5] انظر المغني، 3/ 384.

[6] وانظر ص260 ، مصطلح التشابه، ومصطلح المفصل، ص395 من كتاب البرهان في علوم القرآن .

[7] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص151 .

[8] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص472 .

[9] انظر شذى العرف، ص11، والتطبيق الصرفي، ص24 .

وفعل الشيء نفسه حين تناول لفظ فعل، فساق حديثًا طويلا نسبيًّا ثم قال:" والذي من جهة الفاعل يقال له مفعول ومنفعل، وقد فصل بعضهم بين المفعول والمنفعل فقال: المفعول يقال إذا أعتُبِرَ بفعل الفاعل، والمنفعل إذا اعتُبر قبول الفعل نفسه، قال: فالمفعول أعم من المنفعل لأن المنفعل يقال لما لا يقصد الفاعل إلى إيجاده"[1] وبهذا فإنه فرق بين وزن ووزن وبين المفعول بذاته أو من غيره ويلحظ أنه ساق كل ذلك ليؤكد ما يذهب إليه من أن قول الله تعالى : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) أي إن لم تُبلِّغ هذا الأمر فأنت في حكم من لم يبلِّغ شيئًا بوجه"[2] .

فتركيزه على جانب الاصطلاح المتمحور من اللفظ خصه للقضايا التي أحس أن لابد من بيانها لإزالة الإبهام أو لبيان نقطة يجب أن يجليها، وكأنه أراد لمصنفه أن يكون أساسًا لكل من تصدى لعلم التفسير والتأويل حتى لا يقع في المحظور، أو أن يحمل الله تعالى على غيرمراده كما سبق وأن أشرنا لما ذكره في مقدمة مصنفه، لأن اللغة أساس في علم التأويل، ومفرداتها خير معين وعماد يعتمد عليه المفسر ليقترب من مراد كلام الله عز وجل، وحين كان بعض المتصدين لذلك ربما فاتهم هذا الأمر أو تصدوا له على غير دراية، فإنه وقفهم عليه ليحصر تلك المعاني والمفردات في سياقها ودلالالتها المستحقة لها،وليس ضربًا في شوارد اللغة وغواربها، ولعل ذلك تجلى في الشق الثاني من البحث وهو البعد السياقي مما سنعرضه فيه.

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص397 .

[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص397 .

البعد السياقي

يعطي الراغب البعد السياقي في مصنفه أهمية بالغة في توضيح الفكرة على الرغم من أنه وسمه معجمًا للألفاظ عامة غريبها وسهلها، إلا أن القرآن الكريم يحمل في جوانبه أوجه عدة في التأويل والبيان، وتجد أن اللفظ يدخل في سياقات متعددة كل له بعده الذي يحمله، وذلك مما حمل الراغب على تتبع اللفظ استقصاءً في مواضعه من الكتاب الكريم.

على أن الراغب يلمح في مصنفه عدة أبعاد نفذ إليها من السياق وتتابع الكلام،وجاء بكلام خارج اللغة القاموسية، ودخل في قضايا منطقية فلسفية، ووضح وفسَّر القرآن بالقرآن وهي طريقة طريقة تناولها الشنقيطي في أضواء البيان[1].

فحين وقف الراغب على لفظ"بشر" كيف برزت في القرآن الكريم أوحت بأن المصنف استعرضها في معظم سياقاتها فيقول:" البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامَّة الأدباء.... وجمعها بشَرٌ وأبشار وعُبِّر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثنّى فقال تعالى: (أنؤمن لبشرين مثلنا) وخصَّ في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثَّتُه وظاهِرُه بلفظ البشر نحو: (وهوالذي خلق من الماء بشرًا) وقال عزّ وجل: (إني خالق بشرًا من طين)، ولما أراد الكفار الغضّ من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: (إن هذا إلا قول البشر) وقال تعالى: (أبشرًا منا واحدًا نتبعه. وما أنتم إلا بشر مثلنا... أبشرٌ يهدوننا) وعلى هذا قال: (إنما أنا بشر مثلكم) تنبيهًا أن الناس يتساوون في البشرية وإنما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة ولذلك قال بعده (يوحى إلي) تنبيهًا أني بذلك تميزت عنكم. وقال تعالى: (لم يمسسني بشر) فخصَّ لفظ البشر وقوله: (فتمثل لها بشرًا سويًا) فعبارة عن الملائكة."[2] فهذا استقصاء للسياق كيف وظف اللفظة وأين المراد والقصد منه وفي كل منها ظهرت دلالة جديدة توحي بمعنى مقصود بذاته على أنه لم يكْفه ذلك إنما تابع فقال:" وقوله تعالى: (ما هذا بشرًا) فإعظام له وإجلال وأنه أشرف وأكرم من أن يكون جوهره جوهر بشر"[3].

ونفذ من تلك السياقات المتلونة في الدلالة إلى معنى" المباشرة والإفضاء بالبشرتين وكُنّى بها عن الجماع في قوله: (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون) وقال تعالى: (فالآن باشروهن)"[4]، ومع كل ما قدمه وأورده نفذ من وراء ذلك على البشرى:" يقال بَشَرْتُه فأبشَر أي استبشر وأبشرته.... قال عز وجل: (قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم. قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون. قالوا بشرناك بالحق) "[5] وتابع حديثه عن البشرى والاستبشار وساق آيات كثيرة جدًّا في تأكيد ما يذهب إليه من تقلب

---

[1] وانظر الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مطبعة المدني، بمصر،فالكتاب كله قائم على هذه الفكرة.
[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص44 .
[3] السابق، ص45 .
[4] السابق، ص45 .
[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص45 .

السياق بدلالات مختلفة سواء كانت البشرى للخير أم للشر استهزاء بالظالمين " فبشرهم بعذاب أليم. وبشر المنافقين بأن لهم. وبشر الذين كفروا بعذاب أليم"[1] .

فعلى الرغم من أن هذا اللفظ شائع مشهور بين الدارسين وعامة الناس إلا أنه تابع في تدرجاته واختلاف سياقه ليظهر للمتلقين أن اللفظ لا يمكن أن يتجلى معناه إلا من جراء سوقه في كلام، وبعد ذلك يكون له في كل موضع دلالة وإيحاء خاص به، فيخرج اللفظ من معناه المعجمي "إلى معنى آخر أكثر تحديدًا في الجملة التي تركبت منها، ثم إن الجملة تؤثر في سياقها في المعنى العام للنص، ويظهر ذلك إذا ما نزعت من سياقها إلى سياق آخر فإن لها معنى آخر"[2].

ذلك هو السياق الذي تابعه المصنف من البشرة والجلد إلى الأسمية والجمع والتثنية إلى خلق الخلق كلهم بشر في نظر القرآن إلى استهزاء المشركين والكفار ببشرية الأنبياء عليهم سلام الله إلى تفاضل الناس بالأعمال والخلاق وتساويهم في البشرية التي تمثل الملائكة في قصة مريم عليها السلام، ثم إلى الإعظام والإجلال، ثم إلى الإفضاء والمباضعة، ثم البشرى والاستبشار سواء كان حقيقة أم على سبيل الاستهزاء، فيلحظ أنه قلَّب آيات القرآن من أوله إلى آخره بيانًا لمكانة اللفظة وتقلبها في مواضعها بسياق مختلف عن الآخر مما يزيد الفهم والإدراك ويجلي الصورة على أكمل وجوه.

ويبرز دور السياق في الكشف عن المعنى، لما للفظ المفرد أو الجملة من معان عدة لا يمكن تميزها إلا من جراء سياقها الذي وضعت فيه ونالت وظيفته باقترانها بما قبلها وبعدها في النص نفسه[3]، وعلى هذا تناول الراغب لفظ" عز" فقال بداية:" العزَّة حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب من قولهم أرض عزاز أي صلبة، قال: (أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا)"[4]، ثم تناول اللفظة في مواضعها من قوله : (إنه هو العزيز الحكيم)،(يا أيها العزيز مسَّنا)،(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)،(سبحان ربك رب العزة) ثم قال:" فقد يمدح بالعزة تارة كما ترى ويذم بها تارة كعزة الكفار قال: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) ووجه ذلك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية التي هي العزة الحقيقية، والعزة التي هي للكافرين هي التعزُّز وهو في الحقيقة ذل كما قال عليه الصلاة والسلام:" كل عز ليس بالله فهو ذل" وعلى هذا قوله:" واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا) أي ليتمنعوا به من العذاب... وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة وذلك قوله: (أخذته العزة بالإثم)... يقال عزَّ عليَّ كذا صعب، قال: (عزيز عليه ما عنتم) أي صعب، وعزَّه كذا غلبه، وقيل مَنْ عزَّ بزَّ أي من غلب سلب، قال تعالى: (وعزني في الخطاب) أي غلبني... وقوله: (إنه لكتاب عزيز) أي يصعب مناله ووجود مثله، والعزى صنم قال: (أفرأيتم اللات والعزى)[5].

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص 46 .

[2] أثر السياق في توجيه المعنى القرآني، ص251، وانظر: فان: دايك، النص والسياق، ترجمة: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت، ص260 .

[3] أثر السياق في توجيه المعنى القرآني، ص260 .

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص344 .

[5] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص345 .

فنفذ من معنى إلى معنى ومن سياق إلى سياق متدرجًا بها إلى أن أبان ما علق بها من غموض وإشكال إذ إن النص عندما ذكر الكافرين في عزة فإن ذلك ربما أثار تناقضًا بين حصر العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ثم بعدها يصفهم بالعزة فأزالها بأن ذلك العز ليس على مراده بل تمنع وتستر واستكبار ومشاقة[1] وجلّى المفارقة بين إعزاز الله للقرآن ومن اتبعه وبين تعنت المشركين.

وانصب إهتمام الراغب على بروز اللفظ في أماكنه معطيًا دلالة غير التي أعطتها في موضع ثانٍ ليؤكد أن سياق الكلام هو الذي يحدد المعنى ويوضحه بل يفصل المقصود، فالسياق عادة يكون موجهًا لمعنى وهذا ما لحظه عند عدد من المفسرين بنظرهم إلى ما قبل الآية وما بعدها أو اللفظة أين وقعت وفي أي سياق من الجملة جاءت، وهو ما يؤدي إلى فهم صحيح وتصور للأمر على حقيقته[2].

وحين تحدث عن لفظ" فوق" التي تستعمل في المكان والزمان والحجم والعدد والمنزلة[3] فبعد أن ذكر استعمالها ساق الشواهد القرآنية وذكر لها أضرب في الاستخدام والتوظيف فقال:" الأول بإعتبار العلو نحو: (ورفعنا فوقكم الطور. من فوقهم ظلل من النار. وجعل فيها رواسي من فوقها)، ويقابله تحت قال: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم). الثاني باعتبار الصعود والحدور نحو قوله: (إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم)، الثالث: يقال في العدد نحو قوله: (فإن كن نساء فوق اثنتين)، الرابع: في الكبر والصغر(مثلا ما بعوضة فما فوقها...) ، الخامس: باعتبار الفضيلة الدنيوية نحو: (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) أو الأخروية: (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة. فوق الذين كفروا)، السادس: باعتبار القهر والغلبة نحو قوله: (وهو القاهر فوق عباده) وقوله عن فرعون: (وإنا فوقهم قاهرون) ومن فوق قيل فاق فلان غيره يفوق إذا علاه وذلك من فوق المستعمل في الفضيلة... والفواق ما بين الحلبتين وقوله: (ما لها من فواق) أي من راحة ترجع إليها، وقيل ما لها من رجوع إلى الدنيا..."،[4] إن هذا التدرج ومتابعة اللفظة السياقي ليعطي المتلقي تصورًا جليًا في توظيف المفردة في سياقاتها المتلونة، على الرغم من أن هذه اللفظة بسيطة المعنى مستخدمة لدى المتكلمين في كل مستوياتهم لكنه أبرز لها استعمالات ست في القرآن الكريم متابعة حثيثية لسياقها ومعناها الذي يبدو في كل لون جديدًا، مما يشكل رؤية حول المصنِّف في دأبه وإعمال عقله وحفظه إستقصاءً للمعاني المتجديدة من جراء السياق، وتعتبر هذه لفتة جلية في النظر إلى المفردة أنها من غير سياقها قد لا تحمل سوى معنى واحد قاموسي معجمي، وحيث إن بساطة المفردة في وضعها القاموسي سهل إلا أن سياقاتها المتعددة قد تدهش المتلقي وتحفزه على النظر في المفردات وعدم الاستهانة بأية لفظة من نوعها، وربما كان القصد من وراء ذلك هو إعطاء المتلقي بعدًا سياقيًا لكل لفظة، خاصة إذا وظفها القرآن الكريم ويعد ذلك قطعًا للطريق على

---

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط(15)، 1408هـ - 1988م، 5/ 3007 .

[2] أثر السياق في توجيه المعنى القرآني، ص281 .

[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص401.

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص401 .

المتسللين إلى تفسير القرآن بغير علم ومتابعة ونظر دقيق لا يخلو من تأمل، فالعناية باللفظ من أهم تصورات السياق في دلالات محددة[1] .

ولما كانت اللغة قشرة خارجية للنص قد تبدو جميلة أو غير جميلة، أما اللباب فإنما يكمن في إتجاهين هما المعنى المعجمي، والمعنى السياقي أو الموقف، فإن اللغة إطار يجمع الأثنين المعجمي والسياقي فيصل الفهم المراد من الإطار دخولا إلى عمق الحدث والمناسبة[2] ،فإن الراغب كان الأسبق في فهم مراد ذلك كله فنفذ من إطار اللغة لعمق السياق في تقلبات المفردة ليضفي عليها طابعًا سياقًا مثيرًا حاول من جرائه إيصال فكرة واضحة للمتلقين بأهمية سياق الكلام واستخدام المفردة في مكانها الصحيح.

ويبدو أنه أبان ذلك كله حين تناول لفظ" قضى"، فقال:" القضاء فصل الأمر قولا كان ذلك أو فعلا وكل واحد منهما على وجهين: إلهي وبشري.فمن القول الإلهي قوله: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) أي أمر بذلك وقال: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحكم أي أعلمناهم وأوحينا إليهم وحيًا جَزمًا، وعلى هذا (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع) ومن الفعل الإلهي قوله: (والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) وقوله: (فقضاهن سبع سموات في يومين) إشارة إلى إيجاده الإبداعي والفراغ منه نحو(بديع السموات والأرض) وقوله: (ولولا أجل مسمى لقضي بينهم) أي لفصل"[3]. ثم أخذ الراغب في الحديث عما يخص القول البشري ومعناه وأين جاءت سياقاته في القرآن الكريم، فقال:" ومن القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فإن حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفعل البشري (فإذا قضيتم مناسككم.ثم ليقضوا تفثهم وليوفو نذورهم)، وقال تعالى: (قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي)، وقال: (فلما قضى زيد منها وطرًا)، وقال: (ثم إقضوا إليَّ ولا تنظرون) أي أفرغوا من أمركم ، وقوله: (فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا)... يحتمل القضاء بالقول والفعلا جميعًا، ويعبر عن الموت بالقضاء.... وقوله: (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) قيل قضى نذره لأنه كان قد ألزم نفسه أن لا يَنْكل عن العِدى أو يقتل.... وقال: (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) قيل عُنِيَ بالأول أجل الحياة وبالثاني أجل البعث"[4].

فمما سبق يتبين تفريع الراغب على اللفظة ألوانًا من الحديث حوْلها ثم حول مكانها في سياق آيات القرآن الكريم على معان متعددة أورد معظمها بيانًا للمستمع وتحقيقًا لتفرقها في خطاب المولى سبحانه كيف يفهم مراده، وبهذا خرج من معناها المعجمي إلى السياقي ومن الإطار إلى اللباب حيث أضفى عليها لونًا من التعددية والتجزئة بعيدًا عن التوهم والاضطراب كي لا يكون الحديث ضربًا من التصور الذهني بل شواهد متتابعة، ومع كل ذلك فإنه تابع حديثه إذا كانت تحتمل الكناية أولا فقال:" وقال: (

---

[1] انظر: النص والسياق، ص264 .

[2] انظر صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981م، ص528 .

[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص421 .

[4] مجم مفردات ألفاظ القرآن، ص421 .

يا ليتها كانت القاضية. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) وذلك كناية عن الموت، وقال: (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض)"[1].

ثم دخل في قضايا عقدية تخص السياق والاصطلاح كتفريقه بين القضاء والقدر وما بينهما من عموم وخصوص فقال:"(لقضي إليهم أجلهم) أي فرغ من أجلهم ومدَّتهم المضروبة للحياة، والقضاء من الله تعالى أخصّ من القدر لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير والقضاء هو الفصل والقطع"[2] وساق حديثًا طويلا من الخلاف بين العلماء حوله، وبين الصحابة رضوان الله عليهم.

وحينما كان السياق مهمًا في فهم مراد الكلام وفهم المادة اللغوية يعتمد على المتغيرات الخارجية من خلال الاستخدام والتوظيف وليس من خلال المعنى القاموسي المعجمي[3]، فإن اللفظ أو الكلمة التي تدور في مجالات عدة بخاصة في القرآن الكريم فإن سياقها مؤشر على معناها ومشير إليه في الوقت نفسه إذا ما أعمل الذهن فيها أين موقعها ومكانها لذلك لمح الراغب في وقفته عند لفظ الهداية، وهي من الكلمات التي دارت في كتاب الله بسياقات متعددة حملت دلالات كثيرة بيَّنها الراغب مستقصيًا سياقاتها مسحًا شاملا لمعظم أماكنها، وأبرز لها معان ودلالات تدل على متابعته الدقيقة اللطيفة، فبدأ أولا في معناها القاموسي فقال:" الهداية دلالة بلطف، ومنه الهديَّة وهوادي الوحش أي متقدّماتها الهادية لغيرها، وخص ما كان دلالة بهديْت وما كان إعطاء بأهديت"[4]. ولما كان هذا اللفظ قد جاء في سياق العذاب وجهنم وجزاء الكافرين استدرك ذلك على أنه استعمل للتهكم فقال: " إن قيل كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم، ويهديه إلى عذاب السعير) قيل ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى"[5] وكأن الراغب يتابع عقل المتلقي ويرى حيرته واندهاشه فيجيبه ويزيل دهشته، وهي من الصفات التي قلما تتجسد في الكتاب الذين يضعون القارئ وأحواله النفسية موضع الاعتبار الكامل، ويكتب وهو يفكر فيه ويحاول مراعاة تقاطيع هذه الصورة حتى يحصل التجاوب بين المكتوب والقارئ[6]، كان ذلك على مستوى المعنى القاموسي المعجمي أما السياقي القرآني فإنه يرى أن هذه اللفظة جاءت على أربعة أوجه فأخذ في بيانها فقال:" وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه، الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب إحتماله كما قال: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[7].

ثم ذكر الأصناف الأخرى مدلِّلا عليها بشواهد تنم عن عقلية ونفسية امتزجت بآيات القرآن الكريم وروحه، فقال: الثاني" الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى: (وجعلنا منهم

---

1 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص421 .
2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص421 – 422 .
3 انظر: رشيد بلحبيب، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، مجلة اللسان العربي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، عدد(49)، يونيو/1999م .
4 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص536 .
5 السابق، ص536 .
6 انظر الأدريسي، رشيد، سيمياء التأويل الحريري بين العبادة والإشارة، رؤية للنشر، القاهرة، ط(1)، 2010 م، ص287 .
7 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص536 .

أئمة يهدون بأمرنا)، الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعنى بقوله تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقوله: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وقوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم)...(والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)، الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعنيُّ بقوله: (سيهديهم ويصلح بالهم... الحمد لله الذي هدانا لهذا)[1].

ونفذ الراغب من كل تلك السياقات إلى أدق منها ألا وهو أبعاد فلسفية منطقية، فرأى أنها مترتبة فوق بعضها فقال:" وهذه الهدايات الأربع مترتبة فإنَّ من لم يحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله، ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطُّرق دون سائر أنواع الهدايات وإلى الأول أشار بقوله: (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، يهدون بأمرنا، ولكل قوم هاد) أي داعٍ، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: (إنك لا تهدي من أحْبَبت)"[2].

فلولا أن الراغب اتخذ السياق دليلا هاديًا ليرشده إلى ذلك لما وصل إلى هذه التقسيمات بعقله الفذ وبصيرته النافذة وخبرها في سياقاتها ليخرج بذلك الترتيب المنطقي الذي ينم عن عقل يقظ،إذ إن اللفظة كثيرة الدوران في القرآن الكريم وتنوعت سياقاتها وتدرجت دلالاتها، وكان لا بد من النظر إلى كل سياق وحده أين تقف دلالته؟ وماذا يعطي من معان وألوان من الفهم والإدراك؟ فلا يتصور مقال أو نص خارج من سياق أو موقف يحدده مقام معين[3]، ويمكن القول إن الكلام ذو أهمية قصوى في سياقه الذي جاء فيه إذ" إن معنى الكلام لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن سياقه الذي يعرض فيه"[4].

ومما يذكر في هذا الموقف للراغب استقصاؤه السياق إلى أعلى درجة في حديثه عن تلك اللفظة تحديدًا حيث يرى أن:" كل هداية ذكر الله عز وجل أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة وإدخال الجنة، نحو قوله تعالى: (كيف يهدي الله قومًا) إلى قوله(والله لا يهدي القوم الظالمين)... وكل هداية نفاها الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن البشر وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخاله الجنة كقوله عز ذكره: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ولو شاء الله لجمعهم على الهدى)... (من يهد الله فهو المهتد) أي طالب الهدى وتحريه هو الذي يوفقه ويهديه إلى طريق الجنة لا من ضاده فتحرى طريق الضلال والكفر"[5].

---

1 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص536 .
2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص536 .
3 أثر القرآن في توجيه المعنى القرآني، ص204.
4 السعران: محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ص290.
5 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص536 .

ولما كان على محلِّل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يرد فيه لما يتطلب ذلك من مكونات لغوية وحدود، وكلها تتطلب معلومات سياقية أثناء التأويل[1] فإن المصنف جرى على هذا المنوال فأخذ في بيان قضايا أخرى تابعة لسياق اللفظ فقال: "ولما كانت الهداية والتعلم يقتضي شيئين: تعريفًا من المعرِّف وتعرُّفًا من المعرَّف، وبهما تمّ الهداية والتعليم فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلم ولم يحصل القبول صحّ أن يقال لَمْ يَهْد ولم يُعلِّم إعتبارًا بعدم القبول وصحَّ أن يقال هدى وعلَّم إعتبارًا بِبَذْله، فإذا كان كذلك صحّ أنَّ يقال إن الله تعالى لم يَهْدِ الكافرين والفاسقين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعلم وصحَّ أن يقال هداهم وعلمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الهداية. فعلى الاعتبار بالأول يصح أن يحمل قوله تعالى: (والله لا يهدي القوم الظالمين، والكافرين) وعلى الثاني قوله عز وجل: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)"[2]، وكأنه يرى الهداية هي التوفيق وقبول الحق الذي عنى به القرآن الكريم في هذا السياق.

ثم أنه فرق بين الهدى والهداية واختصاص كل واحد منهما بمعنى مخصوص حددها السياق واستخدامه، وكأنه يرى أن ذلك التوظيف لا يخرج عن حدوده التي وضع لها، فقال:" والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولّاه وأعطاه واختصّ هو به دون ما هو إلى الانسان نحو: (هدى للمتقين.أولئك على هدى من ربهم. وهدى للناس)...والاهتداء يختص بما يتحراه الانسان على طريق الاختيار إما في الأمور الدنيوية أو الأخروية قال تعالى: (وهوالذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها) وقال: (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون... فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)"[3]، فتفصيل المؤلف بهذه الصورة وتوضيحه دليل قوي أنه اتخذ السياق نبراسًا يرشده إلى معان عميقة في تحديد السياق للفظ بعيدًا عن المعاني المعجمية والحصرية في القواميس، ولعل ذلك يؤكد أن الراغب كان يرى أن القرآن الكريم لا يوظف اللفظة في مكانها إلا إرادة وقصدًا إلى معناها السياقي وليس المعجمي!

ولما كان اللفظ يتصرف إلى صيغ متعددة في سياقه القرآني فإن الراغب تحرى ذلك كله مستخرجًا منه معانٍ لها دلالتها المرادة في توظيف القرآن لها فقال:" ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم نحو: (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون) تنبيهًا أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم وقوله: (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) فإن الاهتداء ههنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء ومن تحرّيها"[4].

ومن ثَمَّ عرَّج به السياق غلى توضيح مصطلح فقهي كما مر في القسم الأول من البحث إلى لفظ الهَدْي وأحكام الحج والعمرة والإحصار فقال:" والهدي يختص بما يهدى إلى البيت... وقال الله تعالى: (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي. هديًا

---

1 انظر: خطابي، محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط(1)، 1991م، ص297 .

2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص538 .

3 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص538 .

4 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص539 .

بالغ الكعبة)[1]، ومنها التفت إلى مصطلح إجتماعي متعارف بين الناس بناء على أصل اللغة وتقلبات السياق وهو الهديّة فقال:"والهديّة مختصة باللطف الذي يُهْدي بعضنا إلى بعض قال الله تعالى: (وإني مرسلة إليهم بهدية. بل أنتم بهديتكم تفرحون)[2].

فمما سبق يظهر أن الراغب كان ينفتح في حديثه عن اللفظة من ناحية سياقها في كتاب الله أكثر من جانبها اللغوي القاموسي، لذلك يلحظ أن المصنف توسع في القضايا السياقية وعوّل عليها ترجيحًا ومرجعًا للفهم المتوافق مع مقصود القرآن الكريم، فقصد المفردات ثم وضحها في سياقها، وبذا خرج بالألفاظ من دائرتها اللغوية الضيقة إلى دائرة والانفتاح – السياق –[3]!

وانفسح للراغب من بعض استشرافه للألفاظ مدخلًا للأبعاد المنطقية الفلسفية فجعلها مطية للوصول إليها ليبين من خلالها قضايا تؤطر فكرًا يدل على عمق فلسفته للألفاظ ومرامي معانيها العميقة، فلا يترك اللفظة من غير أن يقف عند دلالتها وما يتبعها من أعماق منطقية، فيعدد أحيانًا ويلوّن في شرحه على الرغم من أنه جعله كتابًا معجمًا للألفاظ كما هو بائن من عنوانه ووسمه.

فعندما وقف على لفظ "جهل" قال:" الجهل على ثلاثة أضرب، الأول: وهو خلوُّ النفس من العلم، هذا هو الأصل. وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مُقْتَضيًا للأفعال الجارية على غير نظام. والثاني: إعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والثالث: فِعْلُ الشيء بخلاف ما حقُّه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا كمن يتْرُك الصلاة متعمِّدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: (قالوا أتتَّخِذُنا هزوًا قال أَعوذُ بالله أن أكون مِنَ الجاهلين) فَجُعِل فِعْل الهزو جهلا"[4] فإن الذي ساقه إلى الحديث عن الجهل بهذه الصورة هو سياق الآيات وتوظيف مفرداتها، وكان يكفيه أن يقول الجهل ضد العلم أو يقتصر على الضرب الأول، لكنه آثر أن يتوسع ويورد آراء المتكلمين استقصاءً للفظ في أبعاده التي وضَّحها ليبين أن الجهل جاء بالقرآن على وجوه منها ما هو طبيعي في عدم المعرفة ومنها ما هو مذموم قبيح فقال": والجاهل تارة يذكر على سبيل الذم وهو الأكثر وتارة لا على سبيل الذم نحو: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أي من لا يعرف حالهم وليس يعْني المتخصص بالجهل المذموم"[5].

وحين عدد أضربه فإنما أراد أن يضع المتلقي على طريق الصواب من أن يُؤْتَى الجهل وكيف ينتهي، وإلى أين يصل بصاحبه، على الرغم من أن المفسرين لم يذكروا تلك الأضرب ولم يتطرقوا إليها حتى المتوسعون منهم[6] ثم إنه لم يتوقف عند لفظ الجاهلية التي وردت في القرآن الكريم ذمًا لأهلها ومعتنقيها! ولا يعرف ما سبب ذلك هل اكتفى بأن أورد جذور اللفظ؟ أم

1 السابق،ص539 .
2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص539 .
3 انظر في مثل هذه التفصيلات السياقية، ص41، لفظ برك، ص71 لفظ تلى، ص163 لفظ: خير، ص330 لفظ: عبد، ص354 لفظ: عقل، ص430 لفظ: قول، وغيرها .
4 معجم مفردات ألفاظ القرآنص100 .
5 السابق، ص100 .
6 انظر: تفسير الفخر الرازي، 2/ 127 ، والبحر المحيط، 1/ 404 ، وتفسير القرطبي، 1/ 446 ، وفي ظلال القرآن، 1/ 78 .

غفل عن ذلك المصطلح؟ الذي سبق الإسلام بكل أبعاده ولم يجر فيه كما جرى أصحاب المعاجم والقواميس كأبعاد لغوية عرجت على معنى الجاهلية ودلالتها العميقة واللغوية![1]، لذا يبقى التساؤل قائمًا من جهتين أولهما: لماذا هذا التصنيف في أضرب الجهل والتوسع فيه؟ وثانيهما: لِمَ لم يذكر لفظ الجاهلية ويعطيه حقه من التوضيح وهذا أمر غاية غي الأهمية لكل من درس القرآن الكريم أو اطلع على حياة العرب قبل الإسلام !

وعل الرغم من ذلك كله فإن ذلك التقسيم يدل على عقلية منظمة اتخذت من السياق القرآني تفريقًا بين المعاني المتعددة للسياق، فيعرض للكلمة في أبعادها ليكون بذلك أحرى للوصول إلى هدفه في مصنفه بعيد الغور عميق الدلالة كما أراده ممن يتصدى لتفسير كلام الله !

وبالطريقة نفسها تناول الراغب كلمة "حق" بعد أن عرض لمعناها اللغوي بقوله: "أصل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رِجْل الباب في حقه لدورانه على استقامة"[2]، ولا يعد ذلك تعريفًا لغويًا إذ إن المعاجم عرفته بنحو غير ما أورده الراغب، إذ يكاد يجمع أغلبهم على الحق: ضد الباطل[3] ولم يلمح من أحدهم أنه تطرق إلى رِجْل الباب أو المطابقة وغيرها إلا إذا كان الراغب أجرى تلك التعريفات من فهمه الذاتي للفظة في معناها كون المعاجم توسعت في الحديث عنها بخاصة لسان العرب عدة صفحات!

لكن المدهش تفصيل الراغب فيما بعد لهذه اللفظة بناء على أبعاد فلسفية منطقية حين ذكر لها وجوهًا فقال:" والحق يقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ولهذا قيل في الله تعالى الحق قال الله تعالى: (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق)....والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق وقال تعالى: (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا) إلى قوله تعالى: (ما خلق الله ذلك إلا بالحق)... والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا: (اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حتى قال الله تعالى: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) الرابع: للفعل والقول والواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب كقولنا فعلك حق وقولك حق قال الله تعالى: (كذلك حقت كلمة ربك)...فإحقاق الحق على ضربين: أحدهما بإظهار الأدلة والآيات كما قال الله تعالى: (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانًا مبينًا) أي حجة قوية، والثاني: بإكمال الشريعة وبثّها في الكافة كقوله تعالى: (والله متم نوره ولو كره الكافون)...وقوله: (الحاقة ما الحاقة) إشارة إلى القيامة كما فسره بقوله: (يوم يقوم الناس) لأنه يحق فيه الجزاء"[4].

فمما سبق يظهر جليًّا أن الراغب سلك هذا المسلك بناء على تصور ذهني منطقي نابع من فهم سياقي للآيات فحسب وليس من أقوال أهل التفسير والتأويل، فلا يكاد المفسرون يخرجون إلى مثل تلك التفصيلات مما يوحي بالتساؤل التالي: أكان الراغب يتصور ذلك بناء على فهم ذاتي عميق؟ أم أنه بنى ذلك كله على ما أورده سياق القرآن الكريم لهذه اللفظة وطرائق وتوظيفها

---

1 انظر: لسان العرب مادة جهل، والقاموس المحيط مادة جهل، وجمهرة اللغة مادة جهل، وجمهرة اللغة مادة جهل 1/ 494 .
2 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص124 .
3 انظر: معجم مقاييس اللغة، 2/ 15 ، وجمهرة اللغة: 1/ 100 ، والقاموس المحيط، مادة حقق، ولسان العرب مادة حقق .
4 معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص124 .

في مواضعها من الآيات؟ وهذا ما يرجح ويغلب عليه الظن لأن هذه اللفظة تكررت في القرآن الكريم كثيرًا جدًا ولم يلحظ على أحد من المفسرين تضيفه لأوجهها كفعل الراغب وذلك مما يؤكد أن فهمه وعمق نظره ساقه إلى الحديث عنها بهذه الكيفية وهذا التلون في التصنيف!

يقصد الراغب في قضايا مفردات القرآن الكريم إلى أبعاد فلسفية نابعة من اللغة واشتقاقها غير أنه لا يتكئ عليها كليًا بل يستند إلى هذه الأبعاد لفهمه وإدراكه أن ذلك كله مما يوصل للمعنى ويجلي الفهم" فالاتكاء على معنى اللفظ ليس دائمًا مَعْبرًا سهلا ومنيعًا للوصول إلى القصد، خاصة إذا علمنا أن اللفظ يشتغل على واجهات متعددة: اشتقاقية واصطلاحية وعرفية"[1].

وبذلك الفهم وقف الراغب على لفظة"شقا" فقال: الشقاوة خلاف السعادة وقد شقى يشقى شقوة وشقاوة وشقاء وقرئ(شقوتنا، وشقاوتنا) فالشقوة كالرِّدة والشقاوة كالسعادة من حيث الإضافة، فكما أن السعادة في الأصل ضربان سعادة أخروية وسعادة دنيوية، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب وفي الشقاوة الأخروية قال: (فلا يضل ولا يشقى) وقال: (غلبت علينا شقوتنا)... وفي الدنيوية: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) قال بعض: قد يوضع الشقاء موضع التعب... وكل شقاوة تعب وليس كل تعب شقاوة فالتعب أعم من الشقاوة"[2].

فعلى هذه الكيفية اتخذ الراغب منهجه في التعليق على الألفاظ، والمباينة بين أبعادها اللغوية والفلسفية إلا أنه لم يقف عند البعد اللغوي ربما لوضوحه وبيانه للمتلقي، واتخذ من البعد الفلسفي المنطقي كيف رتبت في سياقها وعلى أي ناحية جرى اللفظ فأبان أن كلا من السعادة والشقاوة يحمل بعدين أو أكثر من ناحية المنطقية والفلسفة اللغوية مما أفاده سياقها ووضحه، ثم في نهاية الأمر وضَّح أن الشقاوة جزء من التعب، وبما أن التعب لم يات في القرآن[3] جعل ذلك مقياسًا كلاميًا كل شقاوة تعب وليس كل تعب شقاوة، وذلك مما يؤكد أنه اعتمد السياق ثم على فهمه الخاص ونظره الفاحص في آيات القرآن وطريقة توظيفه للمفردة واشتقاقها وأضربها.

وإذا كان "المعنى الاشتقاقي هو الثابت، لأنه أصل اللغة، والعرفي هو المتغير، نظرًا لتغير الأعراف والاستعمالات المختلفة للفظ عبر العصور. أما الاصطلاحي فهو محاولة الجمع بين المعنيين الثابت والمتغير بين الأصل والفرع"[4]، فإن لفظ"طوع" داخله شيء من الاصطلاح واللغوية جاء ذلك من جرّاء حديث الراغب عنه فقال بعد أن وقف على معناه:"والإستطاعة استفالة من الطوع وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتّيًا وهي عند المحقّقين اسم للمعاني التي بها يتمكن الانسان مما يريده من إحداث الفعل وهي أربعة أشياء: بنية مخصوصة للفاعل، وتصوّر للفعل، ومادة قابلة لتأثيره، وآلة إن كان الفعل آليًا كالكتابة، فإن

---

[1] بازي: محمد، التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط(1)، 1431 – 2010م، ص72 .

[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص271 .

[3] انظر في خلو القرآن من لفظ" تعب"، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، 1364هـ ، ص154 .

[4] حنفي حسن، التأويل والهيرمينوطيقا، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط(2)، 1993م، ص19 .

الكاتب يحتاج إلى هذه الأربعة في إيجاده للكتابة، وكذلك يقال فلان غير مستطيع للكتابة إذا فقد واحدًا من هذه الأربعة فصاعدًا، ومتى وجد هذه الأربعة كلها فيستطيع مطلقًا ومتى فقدها فعاجز مطلقًا، ومتى وجد بعضها دون بعض فمستطيع من وجه عاجز من وجه، ولأن يوصف بالعجز أولى، والاستطاعة أخص من القدرة قال: (لا يستطيعون نصر أنفسهم...)[1]وعلى ذلك جمع الراغب بين الاستطاعة بمعناها اللغوي والإصطلاحي حيث فرق بينها من جراء مقارنته القدرة والاستطاعة التى هي في حاجة إلى آلة والتي لا تحتاج إليها بناء على نظرة منطقية نابعة من فلسفة اللغة ومجرياتها واستخدامها وتوظيف مفرداتها في سياقها.

ويرى الراغب في بعض الألفاظ دلالة بعيدة المدى من حيث أن كلا ينظر إلى معناها متولدًا من جراء فهم ذاتي أو منطقي كقوله في لفظ "صعد":" الصعود الذهاب في المكان العالي، والصُّعود والحدور لمكان الصُّعود والانحدار وهما بالذات واحد وإنَّما يختلفان بحسب الإعتبار بمن يمرُّ فيهما، فمتى كان المار صاعدًا يقال لمكانه صعود، إذا كان منحدرًا يقال لمكانه حدور"[2] فالنظر إلى الصعود إنما يختلف باختلاف الحالة وهي التي نظر إليها الراغب مبينًا دلالتها من الحالة التي تقع عليها فالمنحدر صاعدًا والصاعد منحدرًا حسب المار أو الناظر وهذا بعد فلسفي منطقي لذا قال يختلفان بحسب الإعتبار، ومن ثمَّ أخذ في الحديث عن توظيفها في القرآن الكريم ففي قوله تعالى: (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابًا صعدًا) أي شاقًا قال: (سأرهقه صعودًا) أي عقبة شاقة"[3] وأخذ في تقلبات اللفظة الصرفية وما تؤدي من دلالة وبعد ثم ذكر مقابلها من النزول وكيف يفهم ذلك فقال:" واستعير الصعود لما يصل من العبد إلى الله كما استعير النزول لما يصل من الله إلى العبد فقال سبحانه: (إليه يصعد الكلم الطيب) وقوله: (يسلكه عذابًا صعدًا)"[4] والمتتبع لكلامه يرى أنه وظف الأبعاد الفلسفية المنطقية في فهم اللغة ومفرداتها لتكون دلالة بيِّنة معاونة لفهم النص وإدراك أبعاده، ومما يلحظ أن رؤيته المنطقية نابعة من اللغة نفسها وتصريفاتها وتوظيف المفردات ومع كل ذلك"فإن معنى العمل الأدبي متوقف على ما يفهمه القارئ ويبنيه من معاني. وتبعًا لذلك لا يمكن الحكم على قراءة ما بالصمة"[5] فالراغب أثبت ذلك بناء على تصوره وما أدت إليه مفردات اللغة في سياقها وما ولَّدته من أبعاد فلسفية، وعليه فإنه حاول أن يعطي المتلقي قدرًا لا بأس به من الفهم والتتبع والنظر في النص والتعمق في التفكير وإجالة النظر[6].

ومما سبق يتضح جليًّا أن الراغب عمد في مصنفه إلى أبعاد فلسفية منطقية اتخذها أداة لتوضيح المفردة القرآنية وجلاء معناها من تتبعه لسياقها وطرائق توظيفها لتخدم النص القرآني على مستوى الدلالة وعلى مستوى اللغة، فكان مصنفه أشبه

---

[1] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص219 .
[2] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص288 .
[3] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص288 .
[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص289 .
[5] التأويلية العربية، ص88 .
[6] انظر في تعريجه على الأبعاد الفلسفية، ص 343 لفظ: عرف، ص349، لفظ: عصم، ص369، لفظ: غبن، ص387، لفظ فخر، ص461، لفظ: كون، ص480، لفظ: مائة، ص491،لفظ: مكن وغيرها كثير جدًا.

بتفسير للمفردات مجردة وفي سياقها، وكأنه ينظر إلى التفسير الموضوعي لكل موضوع ألفاظه ومفرداته التي تتوارد عند النطق بها، أو توظيفها ويكون بذلك قد سبق إلى فكرة التفسير الموضعي إن كانت ممكنةفي تتبع اللفظ وما يدور حوله وفي معناه [1].

[1] انظر: الخالدي: صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، الأردن، ط(1)، 1997م، ص29 .

الخاتمة

يمكن في نهاية البحث القول أنه خلص إلى :

أن الراغب لغوي بارع استطاع أن يقف على ألفاظ القرآن الكريم جميعها أو معظمها وبيان كل منها بناء على ما ادخر في نفسه من ثروة لغوية وفهم لمرامي كلام العرب الأقحاح، فكان لا يقتصر في شرحه على المعنى القاموسي بل يجاوزه لغيره فهمًا ذاتيًا متأتيًا من جراء تعمقه في أساليب العرب في كلامها فيعد مصنفه قاموسًا لغويًا خاصًا بألفاظ القرآن ثم يجاوزها إلى ما استخدمته العرب في كلامها وبراعة منه نفذ من المعنى القاموسي إلى أبعاد المعاني سياقيًا ولفت البحث إلى أنه توسع في المعنى السياقي وأطلق لنفسه العنان أن يتابع اللفظ بكل جرأة وحرية كي يصل إلى التفريق بين سياق وسياق لأن المعنى اللغوي القاموسي يضيق أحيانًا عن أن يؤدي غرضًا ظاهرًا إلا إذا توبع في سياقه وتوظيفه ومما يؤكد ذلك أنه انطلق في المعنى السياقي حتى دخل في قضايا منطقية فلسفية خرج منها إلى معنى أكثر وضوحًا ففنّد بعضها وصوب أخرى والزم ببعض المعاني متخذًا من اللغة مطية للسياق ومن السياق متكأ للمنطق والفلسفة ولم يحد عن اللفظة إلا بعد ان يشبعها ويشبع المتلقي حول مجرياتها اللغوية ثم السياقية وظهر ذلك حين وقف على ألفاظ يكثر دورانها في القرآن الكريم ويتناولها الدارسون وغيرهم ليزيل عنها الإشكال والغموض بكل جرأة ووضوح واستطاع من خلال ذلك أن يتناول بعض الألفاظ التي ربما أثارت جدلا عنيفًا في المعتقد مثل الهدى والاستواء وغيرها ولم يتوقف إلا بعد أن أبان كل جزئياتها وكان في كل ذلك مرجعه اللغة وأصل الوضع وأسلوب العرب فعلى الرغم من أنه معجم للألفاظ إلا أنه يمكن عده إحدى التفاسير الرائدة في موضعها حين اتخذ من اللفظة نقطة منطلقه إلى البيان والتأويل.

قائمة المراجع

1. الأدريسي: رشيد، سيمياء التأويل الحريري بين العبادة والإشارة، رؤية للنشر، القاهرة، ط(1)، 2010 م.
2. الأصفهاني: الراغب، معجم مفردات الفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر للطباعة، بيروت.
3. بازي: محمد، التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطاات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط(1)، 1431 – 2010م .
4. الجرجاني: عبدالقادر، دلائل الإعجاز، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط(1)، 1983م.
5. ابن الجزري: أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، إشراف محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت .
6. ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط(4)، 1990 .
7. جولان لانيز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، ط(1)، 1987م، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
8. حسان: تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء.
9. الحملاوي: الشيخ أحمد، شذى العرف في فن الصرف.
10. حنفي: حسن، التأويل والهيرمينوطيقا، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط(2)، 1993م.
11. أبوحيان: محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، عناية: صدقي محمد جميل، دار الفكر، 1412هـ – 1992م .
12. الخالدي: صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، الأردن، ط(1)، 1997م.
13. خطابي: محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط(1)، 1991م.
14. الدرويش: محي الدين، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، ط3، 1412 – 1992م.

15. ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسين، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط(1)، 1987م .

16. الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(4)، 1406هـ 1986م .

17. الراجحي: عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م .

18. الرازي: أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم، كتاب الجرح والتعديل، ط(1)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند .

19. الرازي: ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي، قدمه، محي الدين الميس، دار الفكر، بيروت، 1415هـ – 1995م.

20. الرافعي : مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، مطبعة الاستقامة، ط (2)، 1940م.

21. رشيد: بلحبيب، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، مجلة اللسان العربي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، عدد(49)، يونيو/1999م .

22. الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، تخريج الأحاديث: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ – 2001م.

23. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر، ت، 538هـ، أساس البلاغة، دار الفكر للطباعة، 1989م.

24. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، ت: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(2)، 1421هـ – 2001م،

25. ابن زنجلة: أبو زرعة عبدالرحمن، حجة القراءات، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(5)، 1422هـ – 2001م.

26. الزهيري: محمود حسين، تأثير القرآن في الشعر حتى نهاية العصر الأموي، دار وائل، ط(1)، عمان، 2015م .

27. الزهيري: محمود حسين، أثر السياق في توجيه المعنى القرآني من خلال جزء عم، دار وائل، عمان، ط(1)، 2014م.

28. الزهيري: محمود حسين، الأدب الراشدي رؤية ومنهج ، دار وائل، ط(1)، 2015.

29. السعران: محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، القاهرة.

30. سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط(5)، 1430هـ – 2009م.

31. الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مطبعة المدني، بمصر.

32. صمود: حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1981م.

33. عبد الباقي: محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، 1364هـ .

34. ابن فارس: أبو الحسين أحمد، ت،395 هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط (1)، 1411هـ – 1991م.

35. فان: دايك، النص والسياق، ترجمة: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت.

36. الفيروز أبادي: مجدالدين بن يعقوب، ت، 817هـ القاموس المحيط، تحقيق، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(4)، 1994م .

37. القاضي: د. محمد محمود، إعراب القرآن الكريم، الصحوة، ط(1)، 1431هـ – 2010م.

38. ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، م. السعادة بمصر، ط(4)، 1382هـ – 1963م.

39. ابن قدامة: عبدالله بن أحمد، المغني، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

40. القرطبي: أبوعبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن،دار الكتاب العربي.

41. قطب: سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط(15)، 1408هـ – 1988م.

42. ابن كثير: عماد الدين أبي الفداء اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تقديم: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط(1)، 1420هـ – 2000م.

43. ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم الأنصاري، ت، 711هـ ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت،

44. الموسى: نهاد، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، نشر بدعم من الجامعة الأردنية.

45. النحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، ت: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط2، 1405 – 1985.

46. ابن هشام: جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ت: د. مازن المبارك ومحمد علي، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، ط(1)، 1399هـ – 1979م .